عــــودة ...

بقلم جورج وغريس

« امرأة هجرها زوجها منذ أمد بعيد ، فعاشت وحيدة مع طفلها إلى أن قضت نحبها ، فذرفت عيني دمعاً التأمت قطراته في كلمات قرأها الزوج الهارب في العدد الحادي والستين من « الرسالة » ثم جاءني يسعى ... ... »

في سكون الليل الرهيب طرق طارق باب منزلي ، فلما أن فتحته وجدت أمامي شخصاً لم أتبينه

قلت : مَن ؟

قال : ألا تعرفني ؟

قلت : معذرة . . فمن طبيعة الانسان أن ينسى ، ومن صفات الليل أن يسكب على الأشياء لوناً غير لونها

قال : صديق قديم

قلت : « مرحباً » .. ثم أخذت بيده الى غرفه الاستقبال ، وتحت ضوء المصباح رأيت أمامي رجلاً في الحلقة الرابعة من عمره ، ترتسم الكآبة على وجهه الشاحب ، ويظهر عدم الاكتراث على لباسه غير المنتظم ورباط رقبته الذي يتدلى على قميصه كالخرقة البالية ... قلبت بصري في زائري الكريم ، ولكنني لم أذكر تلك الصداقة القديمة التي كانت تربطني به ، لذا أحسست في نفسي بشيء من الريبة والخوف . وقبل أن أقول شيئاً أو أبدي حركة اعتدل ضيفي في جلسته ثم قال :

— أماتت حقيقة . . . ؟

قلت : مَنْ ؟

قال : زوجتي

قلت : ماذا تعني ؟ أنت أعلم بحالها ، أما أنا فلا أدرك ما تقصد ولا أدري من أمرك شيئاً

قال : بل إنك تدري كل شيء ، ولكنك تريد أن تجهلني وتجهل كل شيء ، وبالأمس أخرجت للناس صورتي مشوهة ممسوخة ، أملاها عليك خيالك الحاقد وأعصابك الثائرة ، فقد قرأت في « الرسالة » ....

قلت منتفضاً : أأنت فلان ... ؟

قال : نعم

قلت : معذرة ... لقد غيرت الأيام من سحنتك ، وبدل الزمان من هيئتك ، حتى أضحيت شخصاً غير الذي كنت أعرفه أتدري ما فعل الخريف في الشجرة المورقة الفينانة ؟ أتعلم ما ينتابها من تساقط أوراقها وتراجع أغصانها وتقلص ظلالها ... ؟ إن ما يصيبها يا صديقي في تلك الآونة لأهون والله مما أصابك في خريف حياتك ، ولئن كان لتلك الشجرة ربيع تستعيد فيه ما فاتها وتسترجع فيه أسباب الحياة ، فهيهات أن تجد لنفسك ربيعاً يبدل من حالك بعد هذا الجدب الذي أصابها . وحسب الأيام منك الآن أنها ستقف عند الحد الذي وقفت عنده فلا هي بدافعة بك الى الأمام لأن النمو من خصائص الطبائع الحية ، ولا هي بقاذفة بك الى الخلف لأنك في قرار الهوة ... ولطالما مدت اليك حبال النجدة ، وقد فتلت من خيوط الرحمة والعطف والصفح والمروءة . ولكنك أبيت إلا أن تقطعها بأسنة الجحود والنكران والرياء والختل ، فربطت مصيرين بمصيرك ، وقتلت نفسين وأسأت الى نفسك

قال : مهلاً ، فقد بدأتني قبل أن أبدأك ، وأوغلت في القول وما تركت جارحة إلا وأرسلتها تنهش في نفسي ، وأراني قد جئت لأغسل إهانة فأتبعتها بأخرى ، وأتيت لأرد سهماً فأصابتني منك سهام ، ولا أدري من سبب يحملك مني في هذا الموقف العنيد سوى أنك كنت تنظر بعين واحدة في قصتي وتسمع بأذن واحدة . وليس يبعيد على المرأة التي تدفع العالم بيدها الرقيقة دفعاً شديداً في غير رفق ولا هوادة أن تكون قد سكبت سمومها في نفسك فجعلت منك نصيراً لقضيتها ، وهي إذ تكسبك الى جانبها تدفعك في الواقع عن طريقها

لقد خلصت زوجتي من براثن أبيها ، ولكنها منذ اللحظة الأولى وهي تريد أن يصرع رأيها رأيي ، وأن تقف رغبتها دون رغبتي ، فاذا قلت قولاً أبدت نقيضه ، وإذا أديت فعلاً امتعضت منه ، كأن الله قد جعل القبح من نصيبي في القول والفعل ، أو كأنه وضع كل الجمال بين شفتيها وعلى أطراف أناملها ليكون غلافاً حسناً لكل ما تقوله أو تعمله ... ... أردت لها الحجاب فأعلنت السفور ، وأخذت عليها العناد فأنكرت عليّ هذا الحق ، وأحببت أن تكون كما أريد فشاءت أن تكون كما تحب . وكان لي صديق أحبه وأعزه ، ويزورني في منزلي وأتردد عليه في داره

فوشت لى به ، وفى سورة الغضب كدت أقتله ، ولولا قرائن فى رواءته وحزم فى تفكيرى لكان هذا الصديق اليوم وديعة القبور ، وكنت أنا نزيل السجون . . . كان من أثر كل هذا أن أحسست بآمالى ترتطم بصخرة قاسية ، وشعرت بالأفق العريض تضيق دائرته شيئاً فشيئاً ، حتى أوشك أن يجعل لى من هذه الحياة قفصاً لا حيلة لى فى رد غائلته . . . فماذا كنت تريدنى أن أفعل ياصديق وهذه الأسباب قد أجمعت علىّ أمرها فغلبتني على أمرى . . ؟ لقد وليت هارباً ، ولكن ضميرى ظل يضايقني باحتباسه حتى أفرجت عنه بكأس الخمر . . تلك الكأس التى أحرقت همومى وأحرقتنى ، وأذابت ضميرى وكبدى ، وسلبتني ولم تعطني . . . أليست تلك النار من الشعلة التى أسلمتها الشياطين ليد المرأة . . ؟ إنك تقدر المرأة لأنك غريب عنها ، ولكن اعلم ياصديق أنها منذ القدم آلة فساد ، وعنصر تقلب ، وأداة رياء ، وكل ما فى الحياة من شر إنما هو بسمة خادعة انفرجت عنها شفتا امرأة ، وهذا المصير المحزن الذى انحدرت إلى أعماقه ، إنما يرجع إلى تلك المرأة التى أحببتها فكرهت لى الحياة ، وغمرتها بفضلى فرفعت رأسها كالحية الرقطاء . . . مرت الأيام كالأشباح المهزيلة ، وأنا أهيم على وجهى إلى أن شاءت الأقدار أن تدفع إلى يدى صحيفة « الرسالة » فقرأت عن المرأة التى هجرها زوجها فماتت كظيمة الحزن دفينة الألم ، وبقى طفلها على صدرها يبكى وينتحب ، ورأيت طرفاً من قصتى يختبىء بين سطور تلك القصة ، وما إن وصلت فى القراءة إلى اسمك فى ذيل المقال ، حتى ذهب عنى الشك ، وتذكرت جارى القديم ، وأخذت عليه اندفاعه فى الكتابة دون تبصر أو روية . . . وها أنا قد سميت إليك بعد أسابيع ، بعث الله لى فيها من تولى الدفاع عنى ، فقد قرأت بجوار قصتك ما كتبه الرافعى فى « تربية لؤلؤية » وتابعت ما وصف به المرأة فيما تلا ذلك من أعداد ، فسررت ان رأيت المرأة تُدفع دفعاً إلى المكان الخليق بها . . .

قلت : يشاء الجمود أن يجعل فى نفسك طبيعة صخرية حتى أمام جلال الموت ، وتشاء تلك الطبيعة الصلدة أن تنبش قبور الراقدين فى غير رحمة ولاشفقة ، فزوجتك التى لفحت وجهى بأنفاسها المحترقة وهى تعانى عذاب الموت ، والتى ظلت تردد اسمك الى أن لفظت روحها ، تلك الزوجة المسكينة النكودة يأبى عليها القدر القاسى أن تفوز منك وهى تحت أطباق الثرى إلا بوابل السخط واللعنة تصبه على جدث هامد لا يملك رد غائلة ، ولايقوى على دفع نازلة ، وهذا لعمرى عداء ضاعت منه صفة الشرف . . .

والمرأة مذ خلقت ، وهى تعانى شر هذا العداء لا لشيء سوى أن الرجل يميل بطبيعته الى جنسه ، وتدفعه الأثرة الى أن يسوّد نفسه ويعظم من شأنه ، ويحقر من أمر تلك المخلوقة التى جاءت تنازعه البقاء ، فهو فى عصوره الأولى كان يبعث بالمرأة طعاما للآلهة ، وهو فى الجاهلية كان يئد مولودته ولا يعترف لها بالحياة ، وفى اليابان كان الرجل يدفع بابنته الى أمكنة الفجور خرقة يمسح بها الرجال شهوتهم حتى تسد ديون أبيها ؛ وفى الصين كان الرجل اذا ما وُلد له غلام ذكر يفرح ويتهلل ، أما إذا كان المولود أنثى قال مكتئباً : « لقد سقط حجر من سقف منزلى . . . » ، حتى فى عهود المدنية ، وفى مواطن الحضارة ، يدفع ظلم الرجل المرأة إلى ما يسمونه « الرقيق الأبيض » وهو اللطخة الدامية فى الجبين الناصع ، وفى مصر وبلاد الشرق لاتفوز الزوجة غالباً من زوجها إلا بما تفوز به الخادم من سيدها . فهل رأيت حالة كريهة كالتى تعانيها المرأة منذ ولادتها حتى يحويها الرمس . . . ؟ وأى الأمراض انفردت بها المرأة عن الرجل حتى استحقت منه هذا الجزاء ... ؟ أليست كل امرأة ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ، وأما لرجل . . تأخذ الخلق عن أبيها ، وتهديه الى زوجها ، وترضعه لطفلها . . . ؟ فاذا فسدت المرأة أليس هذا الفساد أثراً من تهاون أبيها فى تربيتها . . . ؟ وإذا ضلت المرأة أليس من بين الرجال من هم أشد منها ضلالاً وأقبح رذيلة . . . ؟ ولئن جاز للرجل أن يقول فى كل ما ينتابه من مصائب : « فتش عن المرأة » ألا يجوز للمرأة أن تقول فى كل ما يلحقها من أذى : « فتش عن الرجل » ... ؟

وأعجب العجب قولك ان الأستاذ الرافعى يدافع عنك فيما كتبه ويكتبه ، وهذا لا يمكن أن يقع لأنه إنما يكتب عن عقيدته الخاصة فى المرأة . ومهما فاض « السحاب الأحمر » بما توحيه اليه تلك العقيدة ، ومهما جاء فى كتاباته فى « الرسالة » عن الحجاب والسفور فهو لايوافقك على تلك اللطمة القاسية التى صفعت بها خد المرأة . والحجاب الذى ينادى الرافعى به فى « تربية لؤلؤية » لا يمكنه أن يعيش طويلاً بعد تلك النظرة الساخرة التى ترسلها اليه مدنية القرن الحاضر ، ولا أدرى ، ولا أحد يدرى ما ضر المرأة الفاضلة إن خرجت سافرة ، أو ما نفع المرأة الفاسقة إن قعدت متحجبة . . ؟ وأى الرذيلتين أشد ضرراً ، تلك التى

تستتر خلف الجدر كالداء الذى يختبىء فى قلب العليل لا يدركه ولا يتداركه ، أم تلك التى تتكشف سافرة ، ويبين قبحها كالمرض الذى يظهر على صفحة الجسم ، ما تلمحه العين حتى يلحقه العلاج ..؟

للمرأة عقل كما للرجل : وكذب من ألصق بها العاطفة دون العقل ، وإلا ما حلّقت فى سماء العظمة أسماء جان دارك ومدام كورى وايمى جونسون . ولما حكم النساء بجوار الرجال فى أكبر الدول شأناً وأرفعها مكانا . فرام أن يأخذ الرجل من كبريائه صداً يغشى به عقل المرأة ليغرب خيالها عن ميدانه ، وكفى ما نعانيه لغيابها عنه من ركود فى المجتمع ، وشذوذ فى الملائق ، وخشونة فى الحديث ، وعقم فى التفكير . حتى أصبحنا أضحوكة الغرب إذ أننا نسخر من لهوه ، ولا نأتى جدنا بجديد . . .

قال : يصعب على من تلدغه الحية أن يشعر نحوها بدافع من الرحمة أو العطف ، وإذا صح لى أن أوافقك على بعض ما ذكرت عن المرأة فالمغفور أبعد ما يكون عن تأييدى ، وليكن لك فيه رأيك ، ولكن دعنى أكن على دين « الرسالة »

قلت : وما دين « الرسالة » . . . ؟

قال : الحجاب . . .

قلت : وكيف حكمت ؟

قال : ألا تعلم أن مبدأ الصحيفة إنما يشتق من مبدإ كتابها ، فعقيدتها هى عقيدتهم ورأيها هو رأيهم الذى ينادون به على صفحاتها . . . ؟

قلت : هذا فى السياسة ، أما فى الأدب والاجتماع فمظهر النشاط فيهما هو تضارب الفكر واختلاف الرأى ، والرسالة لا يمكن أن تنادى بالحجاب ، ولكنها مع ذلك ميدان حر لأقلام الكتاب على اختلاف نزعاتهم . وإن كنت قد قرأت فيها للرافعى وصفه للحجاب أنه « كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها فى الحجاب تربية لؤلؤية » ، وقوله عن قاسم أمين إنه « قد تكلف ما لا يحسن » فأغلب الظن أنك لم تقرأ ما كتبه الزيات صاحب « الرسالة » عن المرأة والحجاب ، وهو يخالف الرافعى فيهما خلافاً بيناً ؛ ففى العدد السابع من « الرسالة » تراه وهو يكتب عن شواهده « فى العيد » يستنكر هذا الفتور الذى تقابل به أعيادنا فى مصر والشرق ، ويعزو ذلك الى غيبة المرأة عن المجتمع ، وهو فى ذلك يقول : « كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة ، وأصبحنا كالسمك فى الماء أو الهباء فى الهواء ، نحيا حياة الهوام والتشرد ، فلا نطمئن الى مجلس ولا نستأنس لحديث » ولما أن همس الهامسون لما جاء فى هذا المقال ، عاد الزيات فى العدد التاسع الى بسط رأيه ذاكراً أن « صلة الحجاب بالدين قد فرغ من توهينها العلماء من أمد طويل » وأن مجتمعنا لغياب المرأة « أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أشل لأنه يعمل بيد واحدة ، بليد لأن حدة العواطف تنقصه ، خشن لأن لطافة الأنوثة تعوزه » فهل بعد هذا تعتبر « الرسالة » نصيرة الحجاب . . ؟

إنك تريد أن تنتزع العطف على قضيتك من كلمات كتبها الرافعى ، وهى فى الحقيقة لا تنفعك ، وهو لو علم أن دعوته تصادف هوى فى نفوس أمثالك لتحول عنها ، وكان أول من ينادى بالسفور

* * *

لم يحرك شفتيه بكلمة ، وكان جوابه ناطقاً فى عينين ساهمتين ، ورأس يهتز باستخفاف ، فتركته ينصرف وبه ما به من جمود ، وأويت الى فراشى ، وبى عجب من نفس لو حادثتها حتى تشرق الشمس مرة ثم مرة فما هى بنازلة عما هى فيه من غروب وأفول ..؟

اسكندرية — جورج وغريس

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع الجزء الأول من كتاب :

الاسلام والحضارة العربية

للأستاذ محمد كرد على

وزير معارف سوريا سابقاً

وهو يبحث فى حضارة المسلمين قديماً وحديثاً وأثرهم فى الحضارة العربية وتأثرهم بها . وقد طبع فى مطبعة دار الكتب ويقع فى نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسى رقم ٩ ومن المكاتب الشهيرة